الأســاطير الهنــديّة

بقلم: الدكتور محمد إسماعيل الندوى

تطلق الأساطير عادة على القصص التى تتعلق ببداية الانسانية حيث كان الانســان يمارس الطقوس الدينية والســحر . ومن ثم تدور معظم الأساطير حول الآلهة وخلق الكون وظهور الانسان، ودور الآلهة فى الخلق، وحكايات الجن والعفاريت.

وقد ذهب علماء الافرنج مذاهب شتى فيما يتعلق بتقسيم الأساطير وتحديد أهدافها ومصادرها الأولى. فقد قسم الاستاذ س. ح. حوك S.H. Hooke الأساطير الى ثلاثة أنواع : أسطورة بداية الخلق، وأسطورة التنظيم واســطورة التقييم . والأولى منها تسأل عن ظهور الكون واتخاذه النمط الذى نشاهد اليوم على مراحــل ، كما تذكر الحيــاة الانسانية وتطورها اجتماعيا ودينيــا ، والثالثــة تقوم بدور تقييم الأشياء الموجودة فى هذا الكون وبيان قيمتها والتمييز بينها (١) .

وفى رأى « الأستاذ لويس سنبسر » انهــا تنقسم الى : (١) الأسطورة الطقوســية ، و (٢) والاسطورة التعليميــة ، و (٣) والاســطورة الرمزية ، (٤) والاسطورة التاريخية (٢) .

فالأولى ترتبط بالعبادات والطقوس . ويدرج فى الثانية اسطورة خلق الكون وهى تعتبــر ردا على أسئلة : ماهى طبيعة الماء ؟ ، وكيف جاء ؟ ، وما النور ، ومن الذى يتسلط عليه ؟ ، وما الى ذلك . والثالثة تتعلق بدفاع الانسان عن نفســه ــ بعد اجتياز مرحلة الطفولة ــ من الأخطار التى يتعرض لها من السيول والبــروق والعواصف بأسلحة جديدة لم يعرفها الانسان الأول . والرابعة هى تلك الأساطير التى تخــلع على الأبطــال الخوارق وترفعهم الى مرتبة الآلهة .

ولا يتحتم أن تكون هــذه القصــص أو الحكايات صحيحة ، كما أنه ليس من الضرورى ان تكون كاذبة بحذافيرها . بل هى قصص ألفها ذهن الانسان من أجل أهداف معينة أو لتحقيق غايات خاصة .

(١) انظر :
Babylonian and Assyrian Relion p. 65-66 (London)

(٢) انظر :
The outline of Mythology p. 49 (London)

وقد ذهب هذا المذهب الأستاذ «س.ح.حوك»، ذلك الذى اعتبر قصص التوراة والانجيل أيضا من الأساطير(١) . ولكن الذى يرى أنها غير واقعية أو أنها كاذبة لا يعد قصص الكتاب المقدس من الأساطير . ونعد من بين هؤلاء : الأستاذ روبرت جراڤاس (Robert Giraves) (٢) . ولكننا نرى بعد دراسة وافية لكثير من مصادر التوراة أن معظم قصصها وأساطير وأباطيل كما سنوضح هذه النقطة فيما بعد .

وهذه الأساطير تفيدنا من عدة نواح : أولا — هى تعطينا صورة واضحة للانسان فى المرحلة الأولى من حياته الفكرية ، وكيف كان يفكر ويتخيل ؟ ، وماذا كانت عقيدته عن الكون ومظاهره مثل : السماء والأرض والجبال والأنهار والبحار ، وعلاقة هذه الأشياء كلها بالانسان .

ونرى من خلال هذه القصص التى صاغها هذا الانسان انه قلما كان يميز بين الحق والباطل ، والصحيح والكذب . اذ لم يحاول هذه الانسان مزج خياله بشىء من الواقعية(٣) .

وثانيا : تصف لنا حياة هذا الانسان ودياناته وعقائده وطقوسه وحياته الاجتماعية والسياسية . كما تصور لنا البيئة التى عاش فيها (٤) .

أما فيما يتعلق بالمنبع الأول للاساطير فنحن نرى أن معظمها مأخوذ من الكتاب المقدس (٥) ، كما نرى أن جزءا كبيرا من القصص والحكايات الموجودة فى التوارة جاء على صورة محرفة لما ورد فى الصحف السماوية التى نزلت على الأنبياء مثل : ابراهيم وابنائه وأحفاده عليهم السلام .

وأهم ما يذكر فى هذا الصدد قصة طوفان نوح عليه السلام . فقد ذكر القرآن هذه القصة بصورة واضحة . وهى لا تختلف عما ورد فى الكتب السماوية الصحيحة . ولكن حينما نرجع الى تراث السومريين والبابليين نجدها محرفة تماما .

وتصف أساطير هذه الأمة أن « الاله انكى » (Enki) أراد انقاذ البشرية من الطوفان . فأمر « زيوسودار » (Ziusudar) ملك « بلادسيمبار » الصالح العابد ببناء سفينة لانقاذ البشرية . وعلى هذا المنوال تسير القصة كلها حتى النجاة . وهذه الكارثة قد ألمت بتلك الأمة التى كانت تقطن ما بين النهرين أو العراق . ولكنها نقلت بصورة مشوهة الى جميع الأمم . ولهذا وجدناها ذكرت محرفة فى حضارات مصر القديمة والهند واليونان جميعا(٦) . وكذلك قصة خلق الكون والانسان التى وردت فى القرآن الكريم والصحف السماوية الصحيحة . فقد طرأت عليها هى الأخرى تغيرات واتخذت صور الأساطير فى جميع حضارات الأمم القديمة (٧) .

وقبل أن نتحدث عن الأساطير الهندية يحسن بنا أن نذكر الفروق الواضحة بينها وبين أساطير الأمم السامية القديمة ومصر واليونان والصين واليابان . وذلك لكى تتضح لنا مميزات الأساطير الهندية وأصالتها ومدى تجاوبها مع أساطير الأمم القديمة فى العالم .

(١) انظر كتابه : Middle Eastern Mythology p. 11.
(٢) انظر مقدمته لكتاب : Larousse Encyclopedia of Mythology.
(٣) انظر : Mythology by Edit Hamilton p. 13.
(٤) انظر : Larousse Encyclopedia of Mythology p. 7.
(٥) راجع ما ذكره الأستاذ Thomas Bulfinch فى كتابه : Mythology of Greece and Rome p. 286-288.

(٦) انظر : Middle Eastern Mythology p. 16 - 25
(٧) نفس المصدر ص ٢٣ — ٣٠

ولما كانت بلاد مابين النهرين موطن الانسان الأول وموطن الرسالات السماوية فقد اتخذت قصة آدم وحواء وقصة نوح وقصص أخرى ملامح أسطورية فى الآداب السومرية والأكادية ، وذلك بعد التحريف والتشويه الذى حدث فيها ، وأخذت طريقها الى البلدان الأخرى ، كما تحولت حياة هذه الأمم الى الوثنية ، وظهرت فيها أنواع العبادات والطقوس وتبعا لذلك فقد ظهرت أساطير عديدة تعبر عن حياة هذه الأمم الاجتماعية والعقلية (١) . اما الأساطير المصرية فيقول عنها الدكتور أحمد فخرى بعد مقارنتها بأساطير السومريين والبابليين واليونانيين أنها لا تقل عنها كثيرا فى قيمتها من ناحية الموضوع ، وطريقة العرض وجمال الأسلوب الأدبى . وليس معنى ذلك أنها خلت من الجمال الفنى أو حسن الخيال ، بل لها من هذا وذاك نصيب كبير . ولكن الذى احتفظت به الأيام من أساطير المصريين قليل ، وربما فقد منه الكثير ، أو لم يدون ، وربما عثر فى المستقبل على برديات جديدة تزيد من معلوماتنا عن هذا الموضوع . ففى نصوص الاهرام اشارات كثيرة الى ما كان يدور بين الآلهة . وفيها أيضا اشارات الى حوادث حدثت فيما مضى من عصوره ، ولكنها اشارات مقتضبة ، لا نعرف منها الموضوع كله ، ولا يمكننا أن نعتبرها من الموضوعات التى تدخل فى باب الأدب (٢)...

وأما الأساطير اليونانية فهى غزيرة جدا ، بالاضافة الى تطورها فى فكرتها وصورتها الا أنها لا تعطى فكرة واضحة للحياة البدائية التى عاشتها هذه الأمة قبل بلوغها فترة الحياة المدنية المتطورة التى نبعت منها هذه الأساطير فى ملحمتى « هوميروس » الخالدتين : الالياذة والأوديسا — وهما أول مصدر للأساطير اليونانية . أما اساطيرها الموجودة الآن فهى غنية بمادتها ووصفها وأسلوبها ودقتها ، وتعطى تبعا لذلك صورة واضحة للحياة الاجتماعية والسياسية التى نبعت فيها (٣) .

وتدور الأساطير الصينية حول ثلاثة أديان رئيسية هى : كون فيسيان ، وتاو ، والبوذية ، أما الأولان فهما من الأديان الصينية المحضة ، ونجد فيهما الروح الصينية الأصيلة . واما البوذية فهى ديانة هندية أصلا . ولذلك نجد فيها ملامح هندية واضحة . وعلى الرغم من كل ذلك فان هذه الأساطير الثلاث تتسم بالحياة السياسية الصينية . اذ أن الصين قد استطاعت منذ القرن السادس قبل الميلاد تقريبا — تنظيم سياستها على نسق جديد . وهذه الظاهرة قد تبلورت فى اساطيرها ، اذ أن آلهتها يتداولون مناصب كبرى ويختصون بوظائفهم دون تدخل فى شئون الآلهة الآخرين ، وشأنهم فى ذلك شأن الوزراء فى الحكومة الصينية وسلطاتهم واختصاصاتهم (٤) .

أما الأساطير اليابانية فهى على صلة وشيجة بالأسرة الملكية ، اذ أن اليابانيين كانوا يقدسون ملوكهم ويقدمون لهم جميع أنواع التضحيات . وكما أصبحت البوذية الدين الرسمى فيها ، كما هو الشأن فى الصين والمناطق المجاورة لها . وقد تجلت كل هذه المظاهر فى الأساطير اليابانية (٥) .

---

(١) انظر ص ٤٩ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology

(٢) — ٣٧٥ — ٣٧٤ من : تاريخ الحضارة المصرية « العصر الفرعونى »

(٣) انظر :
Mythology by Edith Hamilton p. 15 - 16.

(٤)
Larousse Encyclopedia of Mythology p. 393-394.

(٥) نفس المصدر ص ٤١٣ .

وحينما ننظر الى الأساطير الهندية فاننا نجدها متنوعة متشابكة بسبب تغيرات مستمرة حدثت فيها ، وبسبب نزوح أمم كثيرة اليها ، وبسبب تقلبات الحياة السياسية والاجتماعية فيها على مرور الزمن . فقد استوطنت أمم كثيرة الهند قبل نزوح الآريين اليها وحياتهم فيها وذلك فيما بين سنتى ٣٠٠٠ ــ ١٥٠٠ ق.م ، وهذه الأمم هى : الموندا ، والمنغوليا ، والدراويدية . وقد لعبت الأمة الدراودية دورا كبيرا فى الحضارة الهندية القديمة ، واتصلت اتصالا وثيقا بالسومريين فى حضارة ما بين النهرين . ومن أجل ذلك فقدتركت هذه الأمة آثارا بعيدة المدى فى الحضارة الهندوكية وآدابها . ولما نزح الآريون الى الهند حدثت اشتباكات عنيفة ومعارك دامية بين هاتين الأمتين انتهت بانتصار الآريين واستيلائهم على المناطق الشمالية كلهافيما بين نهرى الجنجاوالجمنا، وهزيمة الدراوديين ولجوئهم الى المناطق الجنوبية واستيلائهم عليها حيث يشكلون أغلبية ساحقة حتى الآن .

كانت للأمة الدراويدية حضارة عريقة وآداب عظيمة وعقائد وثنية معروفة ، ولكن سرعان ما امتزجت بالفكر الآرى ، الأمر الذى أدى الىظهور أساطير مشتركة نلمس فيها لونين ظاهرين بصورة واضحة (١) .

وتعرض الآلهة الدراويدية عادة فى الأساطير الهندية فىصورة الشياطين والعفاريت أوالوحوش والبرابرة . وذلك لأن الدراويديين اتسموا باللون الأسود ، وأن الآريين الذين سيطروا عليهم سياسيا وفكريا عرضوهم على الصورة الكريهة البغيضة اعرابا منهم عن كراهيتهم لهم ونفورهم منهم . وعلى الرغم من وجود هذه المعاداة بين العنصرين فانه يبدو أنه قد تم الالتقاء بينهما فى بعض الأحيان بسبب الاحتكاك بينهما فكريا وثقافيا ، كما نلمس فى نفس الوقت الصراع بينهما أثناء عملية الاندماج الفكرى والعنصرى .

ومن أمثلة ذلك أن الاله سيفا كان من آلهة الدراويديين . وتروى الاسطورة عنه آن الشياطين والعفاريت كلها كانت تعبده . وقد اتسم هذا الاله بالشدة والعنف والخشونة . وأما الاله داسكا فهو من آلهة الآريين الذين خلقوا هذا الكون . ولذا كان بينهما عداء شديد : وكانت ابنه الاله داسكا وهى «ساتى» قد أحبت «سيفا» حبا شديدا . وفى حفلة الخطوبة التى عقدت لها لاختيارها زوجها طبقا للتقاليد الهندوكية لم يوجه أبوها الدعوة الى « سيفا » لحضورها . ولما حملت ساتى اكليلا من الزهور لتضعه على عنق من تحبه اعلانا منها عن اختياره زوجا لها بحثت عن سيفا عشيقها . ولما لمتجده بين الحاضرين اتجهت الى الآلهة فى السماء طالبة منهم العون ، وألقت الزهور فى الفضاء فظهر سيفا أمامها فجأة يحمل فى عنقه زهورها . وبهذا عرف أبوها سر العلاقة بينهما ، وتم الزواج أمام الجماهير . ومع ذلكفقد كان « داسكا » يكن كراهية شديدة لختنه . ثم أعلن الحرب ضده قائلا:انه اله صاحب عيونقرد، وتزوج من ابنته الجميلة ذات العيون الغزلانية ، وان هذا الزواج قد تم ضد ارادته . ومن المؤسف أن ابنته تزوجت رجلا متوحشا متمردا عنيفا لا يحترم القوانين والمبادىء . وان مهمته دائما هى نشر الذعر والفوضى ، والارتباط معالعفاريت والأرواح الخبيثة . ويبدو بشكله أنه مجنون،

(١) انظر للتفصيل : ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ من :
The Hindu view of Life by Dr. Radha Krishna.

فهو عاري الرأس،أشعث الشعر ، وعلى عنقه قلادة من الجماجم وعظام الانسان . وهو سيدالشياطين وطبيعته شريرة .

أما « ساتى » ــ زوجة سيفا ــ فقد كانت تحبه حبا جما ، وتبحث عن الوسائل التى تدعم هذا الحب وتضاعفه وتجعله بعبدها ويقدسها وكانت تتخذ جميع وسائل الاغراء لهذا الغرض . وتحكى الأساطير أن « الاله اندرا » الآرى قام يوما بزيارة الاله سيفا فى جبل « كايلاسى »،وقدم له الأغانى والرقص ليبعث السرور فى نفسه . فسر به « شيفا » غاية السرور ، وسأله عن طلباته . فقال له اندرا : طلباتى أن تمنح لى سلطاتك وطاقاتك . فمنحه اياها ، فأصبح اندرا من أقوى الآلهة بسبب هذه الطاقات الجديدة والسلطات (١) .

وكذلك كانت « الالهة كالى » من الآلهة الدراويدية.وتصفها الأساطير بأنها كانت سوداء، قبيحة المنظر ، وشعرها مخيف طويل ، ومشعث ، وذات أربعة أيد : فى واحدة منها تحمل السيف، وفى الأخرى تحمل رأس العفاريت المفصولة . وبيدهما الثالثة والرابعة تشجع عبادها الذين يعبدونها . وهى تلبس حلقتين فى أذنيها وتعلق فى عنقها قلادة من الجماجم . ولسانها معلق وعيونها حمراء ، ووجهها وقلبها مثل كرة من النار . وحينما تقوم تضع رجلها على قدم الاله سيفا ورجلها الأخرى على عنقه .

وتصف الأساطير أن « الالهة كالى » هى الأخرى قد امتزجت بالآلهة الآخرين . وحاربت العفاريت الذين هم أعداء الآريين . وقد دار. رحى الحرب بينها وبين «راكتاويجا » سيد العفاريت . وقد خسر «راكتاويجا» عسكره كله ، فاضطرأخيرا لشن حملة صادقة على «كالى» . فاضطرت « كالى »هى الأخرى بدورها الى استخدام سلاحها الممنوع الاستعمال وضربته وقضت عليه . فكل قطرة وقعت على الأرض من دمه كانت سببا فى وجود آلاف من العفاريت . فتحيرت « كالى » من هذه الظاهرة ولكنها تغلبت أخيرا على هذه المشكلة بامتصاص دم العفريت .

وكانت الأمة الآرية قد نزحت من أوربا الى آسيا ، واحتلت أولا بلاد الفنيقيين حيث احتكت بالحيثيين والفنيقيين ، ثم استوطنت طائفة منها ايران ، ونزحت طائفة أخرى الى الهند حيث سكنت المناطق الشمالية منها ، وكل ذلك فيما بين ٣٠٠٠ ــ ١٥٠٠ ق.م وقد جلبت الأمة الآرية معها حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرقالأوسط كما جلبت أيضا آلهتها الأربعة الشهيرة وهى :

١ ــ اندراو　　　٢ ــ متراو

٣ ــ ڤارونا　　　٤ ــ ناساتياس (٢) .

وقد اتسمت آلهةالآريين أو أسرةالهند. الأوربية بثلاث سمات هامة تعتبر بمثابة وظائف لها وهى: ادارة الكون ، ومداولة القوة المادية ، وادارة شئون الزراعة . وعلى هذا الأساس انقسمت الأمة الآرية الى ثلاث طوائف رئيسية : ١ ــ الكهنة ٢ ــ والعساكر ، ٣ ــ والفلاحين . فالالهان : ميترا وڤارونا يديران شئون العالم . واندرا شئون العساكر ، وناساتياس شئون الزراعة . وبدتتلك الظاهرةعند الأمة الآرية التىاستوطنت أوربا ،وهى الرومانية والألمانية . ولكن أساطير الرومان لاتوجد فيها هذه الأسماء بعينها ، بل توجد الآلهة أمثال :

(١) انظر للتفصيل : ص ٣٤٨ ــ ٣٥٠ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology

(٢) انظر : ص ٣٤١ من نفس المصدر .

جوبيتر ، ومارس ، وكويرينوس . أما فى الأساطير الألمانية فتوجد الآلهة : وردن ، وتين ، وهما يختصان بشئون العالم ، «ودونار » بالثانية ، وثانير بالثالثة ، كما يوجد تشابه آخر بين آلهة الهنود الآريين والألمانيين (١) .

وفى أيران الآرية نجد نفس آلهة الهنود الآريين وبنفس الأسماء، وذلك قبل ظهور الزرادشتية ولكن وظائفها تختلف قليلا عن وظائف مثيلاتها بالهند . وذلك أن « اندرا » الذى يلعب دورا هاما فى الأساطير الهندية قد اعتقد الايرانيون أنه رئيس العفاريت الذى لم يكن له مظهر معين. وأما الاله «ميترا» فشأنه شأن ميترا فى الهند فى دوره العظيم فى الأساطير الايرانية (٢) .

وقد احتل الاله اندرا مكان الصدارة فى العقيدة الهندوكية وأساطيرها . وهو الاله الوحيد الذى يظهر دائما فى صورة الانسان . وذلك أنه يحمل القوس ويركب العربة ، ويملك سلطات واسعة فى هذا الكون . وهو الذى هزم المخلوقات الغريبة التى استولت على الماء ، وقتلها وحرر الماء من سيطرتها . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الاله صاحب أعظم قوة فى الكون ، تخضع لها البحار والطبيعة الفتانة والسحاب والليل والنهار . وهو ينحدر من طبقة البراهما ـ أعلى طبقة فى الهندوكية ـ ولذا لا يمت بصلة الى الآلهة الذين ينحدرون من الطبقات الدنيا . وهناك نصوص تدل على وجود علاقة له مع اله النار وهو « اجنى » بأنهما توام ، وبهذا كان « اندرا » اله السماء والأرض ، وكانت زوجته « اندرانى » قد خلقت منه .

(١) انظر ص ٣٥٧ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology
(٢) نفس المصدر ص ٣٢٢ .

وقد حدث مرة أن كهنوتا كبيرا يدعى « دورڤاساس » دعا عليه لأسباب ، فأصابته لعنته التى أدت الى فقدان سلطاته الواسعة ، وفى هذه الآونة ظهر الاله ڤشنو أمامه ، وساعده على استعادة مجده وسلطاته ، وهذه الأحداث خلقت أسطورة مثيرة طويلة (٣) .

وكان الاله «ميترا» و «ڤارونا» من كبار الآلهة ، وان كانا ينتميان الى طائفة شترى ـ وهى دون طبقة البرهمة . ومع هذا فهما يملكان سلطات واسعة ، ولكن لا يمكنهما اتخاذ شكل الانسان اذ لا يصلان الى مكانة اندرا . وقد طبعا على السحر ، ولذا فهما يسيطران على قوى الشر والعفاريت والشياطين . أما الاله ميترا فيشبه كثيرا فى سلطاته وصفاته الاله ميترا الايرانى . وهذا يدل على كونهما من الأسرة الهندية الأوربية (٤) .

أما ناساتياس فمهمته خدمة البشرية والآلهة ، وتوفير أسباب الراحة لها ، ومساعدتها فى كربها وهمها ، ورفع ثقلها عنها وخدمة مرضاها ، وكثير غير ذلك من الخدمات والمساعدات . ومع ذلك لا يمكنه دخول السماء ، اذ أنه ينتمى الى الطبقة الدنيا (٥) .

ومن أهم الآلهة والذى يعتبر بمثابة سيد الآلهة أو رب العالمين هو « البراهما » ، والذى وصفته كتب الڤيدا المقدسة القديمة . وكلمة « برهن » تطلق حقيقة على العبادة ، ولكنها أطلقت فيما بعد على الطبقة الهندوكية العليا (٦) .

(٣) انظر : ص ٣٤٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ من نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر ص : ٣٤١ ـ ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٤٣ ـ ٣٤٥ .
(٦) انظر :
A critical Survey of Indian Philosophy p. 14.

وتحكى الأساطير الهندية أن « البراهما » هو الموجود الأول ، وهو الذى خلق هذه الكائنات وهو اله الآلهة وخالق الانسان وكل شيء فى هذه الدنيا . اذ كان هذا العالم فى البداية عبارة عن ظلام حالك مجهول ، لاشكل له ولا حياة ولا وجود فيه ثم أنشأ الوجود الحى الخالد بطاقاته الهائلة هذا الكون بمواد أنارته وأزالت ظلامه . ولم يكن فى مقدور أحد معرفة كنه هذا الوجود الحى ، وادراكه ورؤيته الا بالوجدان ، فلما أراد هذا الوجود الحى الذى خلق هذا الكون خلق الماء أول ما خلق ، ووضع فيه بذرا أصبح مثل بيضة لامعة كضوء الشمس ، وظلت البيضة على وضعها لمدة عام ، ثم انقسمت الى شطرين ، الأمر الذى حدا الى خلق السماء من الشطر الأعلى ، والأرض من الشطر الأسفل ، ولما كانت هذه البيضة تحتوى قبل فقسها على البحار والأنهار والكائنات والشياطين والانس ، فقد ظهرت هذه الأشياء كلها فور فقسها .

وتصف الأساطير « البراهما » على أنه يحمل بأربعة أوجه ، ويلبس حلة بيضاء ، ويركب حينا الأوز وحينا آخر الطاووس ، وتارة زهرة اللوتس. وله أربعة أيد ، يحمل فى كل يد منها « الفيدا » ــ الكتاب المقدس ــ ودائرة ، وقرص الكرم والاحسان .

وقد تزوج البراهما من الهة شهيرة خلقها من نفسه وأحبها من أعماق قلبه وهى « ساراسواتى » تلك التى اشتهرت باجادة الغناء والموسيقى . والتبحر فى العلوم والمعارف ، والتى أنشأت الحروف السنسكريتية . ولها هى الأخرى أربعة أيد : وفى واحدة منها تحمل اكليلا من الزهور لزوجها ، وفى الأخرى تحمل أوراق النخل ، رمز للعلوم والمعارف ، وفى الثالثة باقة من الزهور ،وفى الرابعة طبلة صغيرة ، وهى أيضا تجلس على زهرة اللوتس ، ويقترن اسمها دائما مع الماء ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت من آلهة الماء (١) .

ومن المتناقضات فيما يتعلق بقوة « براهما » وجبروته ، وصفه أحيانا بأنه خاضع لقوة هائلة تفوق قوته وجبروته . وتحكى الأساطير ــ على لسان براهما ــ : انه فى ليلة من الليالى تصور « نارايانا » روح الكون . ونظر من خلال آلاف عيونه الساحرة الى الكائنات ، وفكر من فوق سطح الماء الذى يحمله الثعبان على ألف قرن . فاذا هو يخر صعقا من قوة ضوء يسطع نوره ، ويعمى بصره ويحير عقله . وذلك لأنه وجد نفسه أمام الاله « نارايانا » اله الآلهة مباشرة . فسأله براهما : أخبرنى يا اله الآلهة : لماذا أنت برىء من المعصية؟ فرد عليه نارايانا قائلا : لأنى خالق هذا الكون ، ومحطمه ، وخالق آلاف الكائنات غير هذه الدنيا. أنا الروح الخالدة الباقية التى لاتزول ولا تفنى ، وأنا الذى خلقتك من جسدى الخالد .

ويلى بعد براهما فى المكانة والمنزلة الآلهة الثلاثة الذين ينتمون الى الأسرة الآرية وهم :اندرا وميترا ، وناستيان .

وينبغى لنا الآن ــ بعد الذى ذكرناه ــ أن نستعرض أساطير خلق الكون فى الديانات الأخرى وحضاراتها مثل : الأكاد والأشور واليونان والصين .

ففى أساطير السومريين والأكاديين والاشوريين أن الماء هو أول موجود فى هذا الكون . وباذابة الماء العذب (Apsu) والماء المليح (Tiamat)

(١) انظر :
Larousse Encyclopedia of Mythology p. 358-361.

ظهرت الكائنات كلها بما فيها السماء والأرض والآلهة والمخلوقات. وقد ظهر الالهان « لاكحومو » (Lakhmu) ولاكحامو (La Khamu) الأمر الذى حدا الى توالد الذكر والأنثى، وهما السماء – الطبقة العليا – والأرض – الطبقة السفلى. وكان « ماردوك » (Marduk) يعد اله الآلهة، فى هذه الحضارة، ذلك الذى خلق الآلهة وجعل السماء مسكنا لها، وخصص الأرض سكنا للبشرية التى خلقها (١).

وتشبه الأساطير اليونانية الى حد بعيد الأساطير السومرية والأكادية فى خلق الكون وظهور الانسانية فيه. وفيها أيضا ظهرت الآلهة باندماج السماء والأرض. وتحكى هذه الأساطير – كالأساطير السومرية والاكادية – أن أول من جاء الى الوجود هو مايسمى « خاؤس » (Chaos) ومعناه « الحر فى الفراغ ». ولعل المقصود به: الكتلة المضطربة التى لاشكل لها، ثم تقول انه كانت تكمن فيه بذور كل شىء، ومن بعده نشأت الأرض الرحيبة « جايا » Gaea و « تارتاروس » (Taratros) وهو مكان مظلم فى أغوار الأرض، ثم الحب Eros) ومن « خاؤس » جاء الظلام والليل الحالك. ومن اتصال الليل بالظلام نشأ الأثير وهو طبقات الجو العليا، والنهار، كما نشأ القضاء والقدر والموت والنوم والأحلام. وكانت الالهة « جايا » (Gaea) رئيسة الآلهة، والأم، والأرض التى خلقت الكون والآلهة والانسان. وكانت طاقاتها واسعة وجبروتها غير محدود (٢).

وفى حضارة مصر كان العالم فضاء أزليا على هيئة كتلة سائلة، لاحراك بها وقد أطلق عليه المصريون اسم «نون». وقد ظهر فى «نون» هذا اله الشمس على ظهر تل من صنعه هو، وقد ظهر بقوته هو. ومن ثم كان يطلق عليه فى مذهب عين شمس « الموجود بذاته ». وتقول الأساطير ان الاله «رع» بعد أن ظهر فى «نون» عطس وتفل، فأوجد من ذلك الالهين: شو وتفنون، وهما يمثلان الهواء والرطوبة. وهذان الالهان بدورهما أنجبا الاله «جب» – اله الأرض، والآلهة «نوت» ربة السماء. ثم تزوج «جب» من «نوت» ورزقا أوزير، وأزيس، وست ونفتيس. وهكذا بدأ العالم «آتوم»، ثم أربعة أزواج من خلقه، ويطلق على هؤلاء الآلهة جميعا التاسوع الالهى (٣).

وتحكى الأساطير الصينية أن الوجود الأول خلق أول ما خلق اله الآلهة وهو «يوبتى» (Yu-ti) وهو يعيش فى قصر عظيم فى السماء كما يعيش امبراطور عظيم على وجه الأرض. فلما أراد هذا الاله خلق الكون خلق أول ما خلق الانسان من الطين، وذلك أنه أخذ حفنة من التراب وصاغ منها الانسان، ووضع تماثيله على الشمس لتجف. فاذا بالسماء تمطر وتصيب بعض هذه التماثيل وتشوه منظرها، على حين يسرع الاله الى التماثيل الأخرى وينقذها ويضعها فى مكان مأمون. ولذلك نجد تفاوتا كبيرا فى الشكل والمنظر والخلق فى تكوين الانسان. فبعضه صحيح البنيان والخلقة، والبعض الآخر كان مشوها مبتورا (٤).

وقد ذكرت الكتب السماوية من التوراة والانجيل والقرآن قصة سيدنا نوح، وانقاذه أتباعه من الطوفان على صورة متفاوتة وقد أخذت هذه

(١) انظر:
Larousse Encyclopedia of Mythology p. 49-5

(٢) نفس المصدر ص: ٩٠ – ٩٢.

(٣) نفس المصدر ص ١١ – ١٢ و « تاريخ الحضارة المصرية (العصر الفرعونى) ص ٢١٠.

(٤) انظر ص: ٣٩٤ من:
Larousse Encyclopedia of Mythology

القصة طريقها الى الأساطير فى شتى الديانات والحضارات . ففى حضارة بابل وآشور نجد أن الآلهة قد ضاقت ذرعا بشر الانسان وفساده فى الأرض . فقرروا يوما اهلاكه وتدميره . أما الاله آ (Ea) فلم يرض بهذا القرار . فدبر حيلةلانقاذ البشرية . وتسربت أنباء حيلته الى الملك يوتا ـ نابس تيم (uta-Napishtim) الذى صنع سفينة كبيرة يبلغ طولها ٢٠ ذراعا ووضع فيها زوجا لكل ما فى الأرض من الحيوانات ، بالاضافة الىالأشياء الأخرى مثل الذهب والفضة ، ولما حل الميعاد أمطرت السماء مطرا شديدا ، وصحبه طوفان عارم جلب معه الهلاك والدمار والفناء لكل ما فىالأرض فاذا بـ « يوتانابس ـ تيم » يسارع الى سفينته ، ويبحر بها ويسوقها الى طريق النجاة فى وسط الطوفان والفيضانات والعواصف التى استمرت سبعة أيام بلياليها . وفى اليوم الثامن هدأت الدنيا واستقر الأمر ، ووصلت السفينة الى الساحل . فسر الاله آ (Ea) من صنيع «يوتانابسن تيم » وباركه وزوجته . ومنذ ذلك اليوم ارتقى كلاهما من طبقة البشرية الى الألوهية (١) .

وحدثت تغيرات فى الأساطير المصرية فى هذا الصدد ، وذلك أن الاله «رع» رئيس الآلهة دعا الآلهة جميعا للتشاور فى موضوع الانسان الذى بدأ يدبر المؤامرات ضده ، فاجتمعت الآلهة لدى «رع» وقررت ابادة البشرية كلها . فاذا بـ « رع » تأخذه الشفقة على الناس ـ قبيل ابادة البشرية فى وسط الغابات والصحراء ـ فأمر «رع» الآلهة بحمل الأوانى الى المكان الذى اتفق فيه على ابادة البشرية . وفى جوف الليل أمر بسكب الشراب من الأوانى . فامتلأت به الحقول ، وبلغ ارتفاع المياه الى مقدار أربعة أصابع . وعندما جاءت الآلهة فى الصباح ورأت ماغمر الحقول، ورأتوجهها الجميل فيه شربت منه . ولذ لها طعمه الى حد أنها سكرت ونسيت أمر البشر (٢) .

أما الأساطير الاغريقية فتتفق الى حد بعيد مع الأساطير البابلية والأشورية . وذلك أن الاله زيوس «صمم على ابادة البشرية ودفنها فىالأمواج والعواصف . ولكن « الاله برومى تيوس » الذى كان فى حراسة الانسان ورعايته أطلع ابنه «ديوكاليون» على هذا القرار . وأعد العدة لانقاذ نفسه وزوجته وابنائه ، وذلك بالسفينة التىصنعها.فلما جاء الطوفان ركب مع أسرته على السفينة ، واتخذ طريقه الى النجاة ، واستمرت الرياح والعواصف لمدة تسعة أيام ليلا ونهارا . وفى اليوم العاشر هدأ الطوفان وغيض الماء ،واستوت السفينة على الجودى . فطلب « ديوكاليون » من الآلهة خلق البشرية من جديد . واستجيب لما طلب(٣) .

وفيما يتعلق بالهند التى كانت بعيدة عن مسرح الطوفان الذى حدث فيما بين الرافدين فقد عرفت هذه الأسطورة وأصبحت حديث الناس مع تغيير يسير فيها،وبدأت تحكيها على عدة صور وأشكال اذ تحكى الأسطورة أن «مانو» الذى هو بطل هذه الأسطورة أول انسان خلق على هذه الأرض. كما أنه أول من قدم القرابين للآلهة . وقد خلق « مانـو » من نفس الشمس . فهو لهذا يركب الحيوانات ويتحكم فيها . وقد حدث مرة ان

(١) انظر : نفس المصدر ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) تاريخ الحضارة المصرية « العصرالفرعونى » ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

(٣) انظر : Larousse Encyclopedia of Mythology p. 99

« مانو » كان يستحم فى بركة أو على شاطىء نهر. فاذا بسمكه صغيرة فى يده تطلب منه السماح بتركها للعيش . فأشفق عليها ووضعها فى جرة ورباها حتى كبرت وقويت وفى اليوم التالى لم يكن فى الجرة سعة لتعيش فيها السمكة . فحملها « مانو » الى بركة . فضاقت هى الأخرى بحجمها. فطلبت منه السمكة أن يرميها فى البحر حيث تعيش فى راحة . فاستجاب « مانو » لطلبها ورماها فى البحر . وهنا تكهنت له السمكة بمجىء طوفان عارم يغرق البشرية كلها . وأرسلت لمانو سفينة كبيرة وأمرته بوضع زوج من كل شىء حى فى الأرض ، وكذا بذور الاشجار لانقاذ كل ذلك من الطوفان .

ولم يكد مانو يستمع الى نصحها حتى طغت مياه البحار وصحبها طوفان عارم وأغرق كل شىء . ولم يكن فى الأرض بصيص من النور وأظلمت الدنيا كلها . وحينئذ ظهر الاله «فشنو» المتجسد فى السمكة ، وعلى رأسه قرن طويل ، وفيه بروج ذهبية كثيرة . فشيد مانو سفينته من قرون وشنو، واستخدم الثعابين والأفاعى لربطها كالحبال . وبهذا استطاع انقاذ البشرية والحيوانات والنبات كلها من الهلاك .

وقد دفنت الأرض تحت ماء البحار بسبب الطوفان . واستولت عليها الشياطين . فتجسد « فشنو » فى صورة حلوف وحشى عنيد وتخطى السماء ودخل فى أغوار المياه ، وهجم على الشياطين وسجنها ، ثم شد الأرض بأنيابه وأتى بها الى مكانها فوق سطح الماء (١) .

وتحكى أسطورة أخرى فى هذا الصدد بأن كرشنا الذى تجسد فيه الاله فشنو ، أوقع «اندرا» فى حيلته . وذلك أن كرشنا ظهر على قمة جبل من الجبال ، وأعلن أنه هو الجبل . وأخذ الثمار الأولى من الأشجار والأعشاب لتكون قرابين له . فأثار ذلك سخط الاله اندرا ، الأمر الذى دفعه الى اسقاط الأمطار والشلالات على رعاة الغنم وممتلكاتهم . ولكن كرشنا حمل الجبل وجعله ستارا على الأرض لحماية رعاة الغنم لانقاذهم وممتلكاتهم . وبهذا استطاع انقاذ أصدقائه كلهم من الأمطار الغزيرة والطوفان والعواصف التى استمرت سبعة أيام وسبع ليال . وقد أعجب«الاله» اندرا بهذه الشجاعة ، فنزل من السماء مع زوجته « اندرانى » وطلبا منه عقد أواصر الصداقة من أجل ابنهما « أرجنا »(١) .

وكذلك لعبت الشمس والقمر والكواكب أدوار الآلهة فى عقائد الأمم وأفكارهم . وظلت تعبد وتقدس ردحا طويلا من الزمن . فقد احتل القمر (Sin) مكانا بارزا لدى الأكاديين والأشوريين . وهو الذى كان يساعدهم فيما يحل بهم من الهم والكرب ، ويجلب لهم السعادة ويعرفهم اختلاف الليل والنهار ، ويعينهم على معرفة الساعات والأيام والشهور والسنين . وتليه الشمس (Shams) وأخيرا الكواكب (Ishtar) (٢)

وفى حضارة مصر القديمة لعبت الشمس «رع» دورا أساسيا فعالا طوال عصورها . وظلت عبادة « رع » المذهب السائد فى الديانة الفرعونية الى نهاية عصر هذه الحضارة .

وأما الحضارات الأخرى مثل الاغريقية والصينية والهندية فلم يكن لهذه المظاهر دور رئيسى فيها .

---

(١) نفس المصدر ص : ٣٧٨ .

(١) انظر :
Larousse Encyclopedia of Mythology p. 38

(٢) نفس المصدر ص ٣٤٣ ، وايضا :
Babylonian and Assyrian Religion p. 28.

وفى الحضارة الهندية بالذات كان كل من الشمس والقمر ينتميان الى طائفة الشترى تلك التى يأتى ترتيبها بعد البراهما . ومن ثم لا يمكنهما اتخاذ أشكال الانسان بخلاف الاله أندرا . مع أن كلا منهما يملك طاقات هائلة كما يختصان بالسحر ، ومع ذلك لا يستطيعان تقديم النفع والضرر لأحد .

فالأول وهو الاله الشمس (Mitra) يختص بابرام العقود والمواثيق ، ويمنع الناس من نقضها بعد توكيدها ، ويعاقب كل مذنب بأشد العقوبات . وهذا الاله يشبه كثيرا الاله ميتهرا الايرانى فى اختصاصاته وسلطاته ووظائفه .

وأما القمر فهو الآخر يؤدى نفس الوظائف أثناء الليل حين تغيب الشمس ، وتترك الدنيا تسبح فى الظلام . فهو ينير العالم ويحافظ على الأمن ويمنع الناس من الخيانة ونقض العهود . وهو يحرس العالم دائما ولا يبرحه أبدا . ويرافق الطيور أينما ذهبت ويظل يرعاها . وكذلك ينبىء بما يحدث فى المستقبل كما يخبر عن الأحداث الماضية (١) .

وتروى الأساطير أن الاله الشمس يشبه انسانا أحمر . وله ثلاثة عيون وأربعة أيد ، ويحمل فى يديه زهرة اللوتس ، وفى الثالثة البركات ، وبالرابعة يشجع عباده . وقد تزوج اله الشمس من الهة تسمى «سانجنا»، وأنجب منها ثلاثة أبناء . وتحكى بعض الأساطير الأخرى أن الاله الشمس تزوج من الهة « اوشا » ، وهى الفجر الذى ينقلق صباحا . وقد تغنت بها معظم الكتب المقدسة الهندوكية مثل الفيدا . وهى ابنة السماء وأخت الليل وقريبة الاله «ڤارونا» ، وعشيقة الاله النار . وهى تركب دائما على عربة تسوقها الأبقار والخيول الحمراء . ويصفها الشاعر كأنها فتاة جميلة تسحر بجمالها الرجال ، وتملك قلوبهم ، وتستولى على عقولهم ، وتلبس ملابس جميلة مغرية للغاية ، وتتحلى بالحلى وترقص بكل جمالها وسحرها وتخرج للاستحمام برقصاتها الساحرة ، وتلبس ملابس فخمة لملاقاة زوجها . وهى التى تلعب دور الهة ربة البيت ، اذ أنها توقظ النساء فى الصباح الباكر ، وتحثهن على العمل . وكذلك توقظ جميع الكائنات الحية . وهى التى تدعو الناس الى تقديم العبادات للآلهة وتعلمهم طريقتها . وتشعل الشموع فى المعابد وتشعل النيران للقرابين . وهى دائما مع الابرار فى كل مكان توقظهم وتساعدهم على العمل وتكره الكسالى والأشرار ، ولا تساعدهم فى أى شىء . وهى فتاة جميلة لايزول شبابها ، خالدة خلود الدهر ، تظهر كل صباح باكر فى أحلى مظاهرها وجمالها وسحرها على مر العصور والأجيال .

اما الاله القمر فقد ولد من البحار شديدة الأمواج والهياج ، وبتعبير هندوكى بطاحونة مياه البحر على أيدى الآلهة . الاله الذكر فى حين أنه الاله الأنثى فى الأساطير السامية القديمة . وله سبع وعشرون زوجة من الكواكب التى تجاوره . ومما يذكر هنا أن الأساطير الهندية تضفى على آلهتها الصفات الانسانية مثل :

الزواج والخلافات والحروب وسكنى القصور . كما يتقدم فن العمارة فى ملكوتها فى السماء . ومما يدل على ذلك تلك الحروب الدامية التى دارت رحاها بين الالهة « كالى » — الأم السوداء — وبين العفاريت . وكانت قصور هذه الآلهة فى السماء تشبه كثيرا قصورنا فى الأرض . لان « الاله راكشاش » ذلك الذى يعتبر همزة الوصل بين

---

(١) انظر :
Larousse Encyclopedia of Mythology p. 343

الانسان والآلهة كان يملك مدينة جميلة رائعة هائلة . وكانت هذه المدينة تتخذ أشكالا وألوانا فى كل وقت .

وقد بناها آلهة الفن والتعمير ، لأن الآلهة تعشق الفن والبناء والتعبير والجمال والسحر .

وبالاضافة الى هذه الظاهرة فقد حاك الهنود أساطير شائقة خالدة حول كثير من الحيوانات والأشجار والأنهار ، فركعوا أمامها اعجابا بدورها الخالد فى حياتهم ، وتقديرا لخدماتها العظيمة من أجل سعادتهم ورفاهيتهم ومكاسبهم .

وقد جعل الهندوس الثعابين والأفاعى من أهم آلهتهم . وهؤلاء ينحدرون من سلالة الأبطال ، ويقدرون على اتخاذ أشكال الثعابين والانسان والحيوانات الأخرى . ويملكون طاقات هائلة . وكان عرشهم تحت الأرض حيث بنوا قصورا فخمة تسطع بما فيها من ضياء ونور . وكان «ناكشاكا » من أهم هؤلاء الآلهة فهو الذى كان يحكم الثعابين تحت الأرض .

وقد وصفت الأساطير الهندية شجرة اسمها « سوما » (Soma) وجعلتها الها من الآلهة . و « سوما » فى الحقيقة شجرة الا أنه يطلق فى بعض الأحيان على عصير الفواكه أو رحيق الأزهار . وهو عنصر هام فى مراسيم القرابين والطقوس كما أنه رمز للخلود والأبدية . وتحكى الأساطير أن هذا الاله يستطيع دائما اتخاذ أشكال عديدة مثل الثور أو الطير أو الجرثومة أو العفريت أو الماء أو ملكة الأشجار او ملك الشعراء . وهو رمز الالهام وحقيقة الحياة . وهو يجزى الأبرار ويعاقب الأشرار ، كما أنه بمثابة قنطرة بين السماء والانسان. ولكنه فى معظم الأحيان يظهر بمظهر الاله « القمر » .

وكذلك اتخذ الهندوس بعض الأنهار المقدسة آلهة لهم مثل : نهر الجنجا والجمنا . وتحكى الأساطير بأن الاله فشنو هو الوحيد الذى يبدو باللونين الاسود والأزرق ، ويلبس ملابس صفراء ويركب على عقاب يسمى « جارودا » ، ويحمل فى يده الاولى صولجانا ، وفى الثانية صدفة ، وفى الثالثة دائرة ، وفى الرابعة زهرة اللوتس . أما عرشه فى السماء فقد بنى من الذهب ، وقصوره من الأحجار الثمينة . وهناك نهر الجنجا المقدس الذى يسقط ماؤه الصافى على رأس الاله «دروڤا» ثم على العفاريت السبعة ، وأخيرا يأخذ طريقه الى البحر . ويجلس «ڤشنو» هناك على زهور اللوتس وعلى جانبه الأيمن زوجته الجميلة « لاشمى » تلك التى ولدت بطحونة البحار وبأمواجها الشديدة ثم صب على رأسها من ماء نهر الجنجا بواسطة ابريق ذهبى على صورة الفيل . وهو رمز الحب والجمال ومجد الاله الآلهة . وقد أرادت الآلهه أن ينزل الجنجا الى الأرض ، ولكن كانت هناك عقبة كبرى وهى أن حجم الجنجا كان يزيد عن حجم الأرض . ولم يكن فى الامكان أبدا أن تتسع لمياهه . فأرادت الآلهة أن يقل حجمه ، فحمله اله من الآلهة فسقط الجنجا على شعر الاله الكثيف المعقد ، وظل يجرى على رأسه عدة أيام جادا فى البحث عن منفذ للنزول الى الأرض . فقسمه « الاله سيڤا » الى سبعة فروع لكى يسهل نزوله الى الأرض وتبتلعه بدون عناء فلما أخذ الجنجا طريقه الى الأرض حدثت ضجة كبرى وصدر صوت مخيف ، وهذا هو الرعد . وسقطت معه الى الأرض الأسماك والسلاحف فخرجت الآلهة كلها لمشاهدة هذا المنظر المخيف راكبة على الأفيال والخيول والعربات . وقد فرحت جميع المخلوقات بهذا اليوم السعيد . فسطعت

الأنوار على وجه « الاله ديفاس » ومن ملابسه وحلاه ، فأنارت السماء كلها ، وهذا هو البرق . وكانت الأسماك والسلاحف فى هذه الآونة تبدو ساطعة بالأنوار وتظهر منها رغوة شديدة القوة وتتحول الى طيور بيضاء تطير فوق الماء . وهذه هى قصة سقوط الماء من السماء على رأس الاله سيقا ، ثم نزوله الى الأرض وتفرعه الى عدة أنهار وعيون وبرك وأودية .

وكذلك نجد الأساطير الهندية غنية بالمواد التاريخية . اذ أنها خلعت على كثير من شخصياتها العظيمة وأبطالها الخالدين صفات الألوهية والخوارق والخلود .

وقد اتسمت الديانة الهندوكية وأساطيرها بظاهرة غريبة لانجد لها مثيلا فى الديانات الأخرى وأساطيرها ، تلك هى عقيدة التجسد والتناسخ . ونقصد بالتجسد ظهور « الاله فشنو » فى صورة من الصور ، ولعبه دور الآلهة فيها . وفى التناسخ لا يذهب الانسان سدى بعد موته ، بل يتخذ عدة أشكال وصور ، ويدخل فى أجساد أخرى حية أو ميتة . وقد أعطت الأساطير الهندية سلطات لا حد لها « للاله ڤشنو » ، ذلك الذى يلعب دورا كبيرا فى الحياة الهندوكية حتى هذه اللحظة . وهو أقدم الآلهة فى الديانة الآرية اذ نجده فى كتب الفيدا ، الا أن سلطاته قد ازدادت وجبروته قد اتسع مداه على مر الأيام وهذا الاله له علاقة وثيقة بالاله الشمس ، ولأجل ذلك يقدر على اجتياز ثلاثة عوالم فى ثلاث خطوات فقط . وهى : عالم السماء والهواء والأرض ، ويحب العيش فى السماء ، ولذلك اتخذها مسكنا له .

وهذا الاله ڤشنو يتجسد فى الانسان والحيوانات والأشجار ، ويضفى عليها الالوهية . وبهذا يودى خدماته لهداية البشرية وفلاحها ورفاهيتها . وتحكى الأساطير انه مرت فترة الاستراحة أثناء انشاء هذا الكون . وفى هذه الآونة نام « ڤشنو » على المياه الأرضية وفوق ثعبان أصبحت له رؤسه كمروحة على شكل مظلة . ولم يكن « ڤشنو » مستغرقا فى النوم فى هذه الفترة بل كان على يقظة . وفى هذه الحالة نمت قواته الكامنة وظهرت سلطاته التى سيطرت على العالم كله . وقد استمر النشاط والسكون لمدة تتجاوز آلاف الملايين من السنين ويعتقد الهندوس أن الآلهة كانوا يتنفسون ويضبطون أنفاسهم أثناء هذه المدة الطويلة . وفى كل مرحلة من مراحل انشاء هذا الكون كان الاله ڤشنو يتجسد . وقد تجسد طوال هذه الفترة عشر مرات ، وذلك — مثلا — فى الخنزير الوحشى ، والسلحفاة ، والأسد ، وقزعة ، وأخيرا فى « راما » و « كرشنا » و « بوذا »(١) .

كان « راما » فى الحقيقة ابن الملك دساراتا الذى حكم « كوسالا » فى شمال الهند بين القرنين الثانى عشر والعاشر قبل الميلاد . وقد تزوج راما من سيتا ابنة « جاناك » — ملك فيديحاس طبقا للتقاليد الهندية حينذاك . وقد اتخذ الملك «دساراتا» ابنه الأكبر « راما » من زوجته الاولى ولى عهده . ولما أراد الملك تتويج ابنه بسبب شيخوخته قد دبرت زوجته الصغيرة « كايكيا » حيلة ناجحة ، ومنعته من التتويج ، واستطاعت نفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة سنة ، وذلك ليتولى العرش بدله ابنها « بهارت » .

غادر « راما » بلاده الى الغابات مع زوجته سيتا وأخيه لشمن يهيم فيها على وجهه لقضاء

---

(١) انظر ص : ٣٥٦ ، ٣٧٨ — ٣٨٠ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology

مدة نفيه . وفى احدى غابات جنوب الهند بقرب نهر الجوداورى ظهر راون ملك سيلان الساحر وخطف سيتا وحملها الى بلاده . فخاض راما ومعه أخوه لشمن وسوجريڤا ــ ملك بلاد ڤاناس المخلوع ــ وقائده « حانومان » القرد معركة عنيفة ضد راون ، ثم قتله وأنقذ زوجته وعاد بها الى بلاده ، وذلك لأن مدة النفى كانت قد انتهت فى ذلك الحين .

وهذه هى قصة راما كما تصورها لنا الملحمة الرامايانا . ولكن الهندوس قد أضافوا فيما بعد الى راما صفات الألوهية ، واعتقدوا ان الاله ڤشنو قد تجسد فيه . ومن هنا تحول راما من الشخصية الاسطورية الى اله من الآلهة للهندوس . ويبدو لنا من قراءة الأساطير عن « راما » وصراعه مع راون ــ ملك سيلان ــ الذى خطف زوجته سيتا ، أن المعركة فى الحقيقة كانت صراعا دينيا وعنصريا . وذلك لأن راما كان من الطبقة الآريين الشماليين ، وحاول لأول مرة فى تاريخ الآريين فرض العقائد الآرية الممثلة فى « الاله ڤشنو » فى المنطقة الجنوبية التى كانت موطن الطائفة الدراويدية . وكان « راون » ــ الممثل للحضارة الدراويدية ــ يرفض هذه السيطرة ، ولذلك ناضل وكافح حتى لقى مصرعه فى هذا السبيل . ولسبب هذا التمرد صورت الأساطير الآرية « الملك راون » عفريتا أو شيطانا ماردا ، أو شريرا كبيرا طغى وبغى حتى قضى عليه « الاله ڤشنو » ذلك الذى تجسد فى راما .

وتحكى الأساطير أن « راون » تجسد فى « حران باكسبو » ملك العفاريت ، ذلك الذى منحه « الاله براهما » سلطات واسعة وطاقات هائلة فى هذا الكون . ولكنه أساء استخدام هذا الجميل ، واستخدم طاقاته فى طرد الاله « اندرا » ونفى الآلهة الآخرين من مساكنهم وجردهم من سلطاتهم . ثم أعلن نفسه سيد هذا الكون وألغى عبادات الآلهة وفرض نفسه اله الآلهة . ولكن ابنه «براهلادا» كان على عكسه ، لأنه كان يؤمن بالاله ڤشنو ، ويقدسه ويعبده ، ويرفض الخضوع لوالده ، لينشر دين الاله ڤشنو فى أرجاء بلاده . ولما عرف والده حقيقة عقائده ثار عليه وزاد سخطه ، واتخذ جميع وسائل الارهاب والتعذيب لابعاده عن عقيدته ، ولكنه فشل فى كل محاولاته فشلا ذريعا ، لأن الآلهة كانوا مع ابنه ينصرونه ويمنعون عنه الأذى وذات يوم دار بينهما نقاش حاد عن الاله ڤشنو ، وتحدى الملك الاله ڤشنو ، ورفض الاعتراف بوجوده أو جبروته فى هذا الكون . وسأل ابنه : ولماذا لايظهر ڤشنو أمامه ؟ ولماذا يختفى عن الأنظار ثم ركل الأعمدة المقامة فى قصره بكل قواه وحطمها تحطيما ، واذا بالاله ڤشنو يخرج من الأعمدة ويقف أمامه فى صورة أسد ، ورأسه كرأس الانسان ، ويقبض عليه بيده قبضا شديدا ، ويمزقه تمزيقا . وبهذا انتهت أسطورته .

ثم تولى عرشه ابنه ونشر مبادىء الاله ڤشنو ، وظل على ذلك حتى وافته المنية ، ثم جاء ابنه من بعده ، ثم حفيده ، واقتفى كل منهما آثاره .

وتقول أسطورة آخرة ان «راون» الملك الشرير الذى كان يكن عداوة شديدة نحو « راما » اعترف به أخيرا ، وقال : انه لم يخطف سيتا وزوجته الا لرؤية راما ، وشوقه الزائد ليلقى مصرعه على يديه، وذلك لينال النجاة والخلاص بعد الموت(١).

أما « كرشنا » فهو الآخر من الشخصيات الدينية

(١) انظر للتفصيل : ص ٣٥٢ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology

الكبرى ، ذلك الذى عاش فى حدود القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد ، ويلعب دورا كبيرا فى الملحمة المهابهاراتا . انه يقف دائما الى جانب أرجنا بطل الملحمة فى السراء والضراء . وقد تزوج أرجنا من أخته فيما بعد . وبهذا تزداد بينهما أواصر الصداقة والقرابة . وتتضمن بعض أبواب هذه الملحمة مبادىء كرشنا وتعاليمه . وبها يتكون « لجيتا » الكتاب المقدس للهندوس . وحينما يموت أرجنا بعد كسبه المعركةالمقدسة يخلفه أبناؤه وأحفاده ، الذين يقومون بنشر تعاليم كرشنا فى الجيتا ومبادئه . ولهذا تردى كل من الملحمة « المهابهاراتا » و « الجيتا » انتصارا مبادىء كرشنا وانتشارها فى أنحاء الهند .

وهذه الشخصية هى الأخرى تتحول الى اله من الآلهة . لأن الاله فشنو قد تجسد فيه ، وظهرت له معجزات منذ ولادته حتى وفاته .

وتقول الأساطير فيما يتعلق بولادته انه ولد فى مدينة « ماتورا » التى كانت تقع بين « دلهى » العاصمة وآجرا موقع التاج محل « الآن . وكانت أمه » ديفاكى أخت ملك يسمى « كامسا » . وقد تنبأ بعض الكهان بأنه سوف يلقى مصرعه على يد بعض أبناء أخته . ومن أجل ذلك كان يقتل أبناء أخته فور ولادتهم . فلما ولدت اخته « كرشنا » استطاعت اخفاءه ، واستبدلت به بنت راعية البقر فى احدى القرى المجاورة . وبهذا تمكن كرشنا من الافلات من بطش خاله ، وتربى بين وسط رعاة الغنم ، وبصحبة طائفة البراهما .

وقد ظهرت منه معجزات وخوارق منذ ولادته. وذلك انه كان يملك طاقات كبيرة . فقد استطاع مرة ان يمسك بعربة ويقذفها بعيدا ، كما استأصل شجرتين كبيرتين وحطمهما تحطيما ، وقضى على ثعبان مائى كبير ، وساعد أخاه « بالاراما » على قتل عفريت شرير كبير .

وقد قام يوما بحيلةغريبة ناجحة مع الاله«آندرا» نفسه . وذلك أن الاله اندرا اذ نصح مرة الفلاحين ورعاة الغنم الذين أكرمهم والذى كان يجلب لهم الأمطار ، أن يقدسوا أيضا الجبال التى تعطيهم الأخشاب والأعشاب والحشائش الخضراء التى ترعاها أبقارهم ، بالاضافة الى تقديس الأبقار والاغنام التى ترضيهم بما تقدم لهم من ألبانها . وحينما قام هؤلاء بأداء عباداتهم المقدسة وطقوسهم للجبال والأبقار والأغنام تحقيقا لرغبة الاله آندرا وقف كرشنا فوق قمم الجبال ، وخدع الفلاحين وأخذ ثمارهم كما ذكرنا آنفا .

وتحكى الأساطير ان الفتيات من راعيات البقر كن قد ذهبن يوما الى بركة ماء ، وخلعن ملابسهن لكى يستحممن . فتعالت ضحكاتهن كعادتهن ، فسمعها « كرشنا » واقترب منهن وسرق ملابسهن وأخفاها بين الأعشاب بعيدا عنهن . فلما خرجن من البركة لم يجدن ملابسهن ووجدن « كرشنا » أمامهن ، فالححن عليه فى اعادة ملابسهن ووافقن على شروطه فى أن يقدمن له الطقوس والعبادات ، وتعاهدن على ذلك . ومنذ ذلك الحين بدأتفتيات الهند يقدمن له القرابين ويغنين له ويخرجن للبحث عنه وسط الغابات ويرافقنه . وقد أصبح كرشنا منذ ذلك الحين صديق الفتيات أو عشيقهن أو رفيقهن . وقد تركت كثيرات من الفتياتالهنديات تقاليدهن حين يتركن بيوتهن عندما يستمعن الى أنشودة راما أو مزاميره شوقا اليه وحباله

وحينما شب كرشنا وكبر عاد الى بلده«ماتورا» وقضى على خاله الملك « كاسما » ، والأشرار الآخرين الذين التفوا حوله أو اقتفوا آثاره . ثم

لعب دوره الفعال فى الملحمة المهابهارتا و « الجيتا » مرافقا لارجنا ومساعدا اياه كما قلنا (١) .

ومن معجزات « كرشنا » أن ملكا من ملـوك الهند أنجب ولدا غريبا سماه « سى سوبالا » وكانت له ثلاثة عيون وأربعة أيد . وقد استولت الدهشة والخوف على والديه عند رؤيتهما هـذا الطفـل، وظنا أنه عفريت ، وفكرا فى التخلص منه . فـاذا بهما يسمعان صوتا يقول : انه لا داعى للتخـلص منه ، لأنه قد ولد من يقتله ، والقدر محتوم منـذ الأزل . فسألاه : من الذى يقتله ؟ . فأجاب الصوت هو ذلك لو وقع الطفل فى حضنه ستطير عينه الثالثة وتختفى يداه الزائدتان . فخرج الوالدان يحملان الطفـل ويجـدان فى البحث عن الرجـل الذى وصـفه الصـوت بأنه قاتله . وبذلا المستحيل فى العثـور عليـه . وحينما يئسـا عن ذلك وعادا الى القصر ظهر أمامهما كرشنا مع أخيـه . وما ان وقع الطفل فى حجره حتى طارت عينه الثالثة واختفت يداه الزائدتان . فركعا أمامه وقدما لـه الصلاة وطلبا منه أن يعفو عن ولدهما اذا ارتكب المعاصى ضده فى المستقبل . فوافق كرشنا على ذلك وترك قصرهما وعاد مع أخيه .

وقد حدث مرة أن الملك « يودشتيرا » أقام حفلا كبيرا بمناسبة تتويجه . وحضره أعيان الملوك وأعظم الأبطال فى الهند ، وكان من بين هـؤلاء المدعوين كل من « سى سوبالا » الذى كبر وتولى عرش أبيه ، والاله كرشنا . فتقدم الملك المضيف بقرابينه وطقوسه الى كرشنا اكراما وتقديسا له . فلم تعجب هذه الظاهرة « سى سوبالا » واحتـج عليه ، وأطال لسانه ضد كرشنا وأهانه اهانة شديدة . وقد حاول جميع الحاضرين تهدئته واسكاته خوفا من غضب كرشنا ، ذلك الذى لم يزل يعفو عنه . كما سبق أن عفا عنه أكثر من مائة مرة . ولكنه ظـل على موقفه من التمرد والتفوه بالشتائم وتقـديم الاهانة . ولما بلغ السيل الزبى وظهر سخط الآلهة عليه قويا حطم الغضب سكون الاله ذى اللون الأسود ، ولمعت عيناه بالنار، وحمل دائرة وصولجانا وطارا بهما . ولما وقعا عليه سقط الملك جثة هامدة وانقسم جسده الى قطعتين. ثم اقتربت روحه المذنبة من كرشنا وركعت أمامه وقبلت رجليه وطارت(١).

وتحكى الأساطير أن « كرشنا » الذى تجسد فيه « الاله ڤشـنو قد حان أجله » . وحـدث قبيل وفاته أن أصابته لعنة «دوروفاسا » الكاهن. فأصاب رجله خطأ رمح لصائد فى احدى الغابات كان يتعبد كرشنا فى دير من أديارها . فتوفى كرشنا وارتفع الى السماء حيث رحب به جميع الآلهـة . ومنذ ذلك الحين وقع الظل على الأرض(٢) .

وخلال القرنين السابع والسادس قبل الميـلاد ظهرت فى المناطق الشمالية الهندية التى تمتد بين بين الهملايا ونهر الجنجا ديانة سـميت بالجينية تلك التى أسسـها ڤاردهامانا ، ثـم ظهـرت البوذية على يد « بوذا » (٥٦٣ ــ ٤٨٣ ق . م). وقد استهدفت هاتان الديانتان القضاء على الخرافات الهندوكية وفلسفتها المعقدة فى الحصول على النجاة وعقيدتها فى التناسخ . وقد قامتا باصلاحات كبيرة فى الديانة الهندوكية ، وكرستا جهودهما فى القضاء على الفـوارق الطبقية التى اتسـمت بها الديانة الهندوكية منذ زمن بعيد (٣) .

---

(١) انظر للتفصيل ص : ٣٨٠ ــ ٣٨١ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology

(١) انظر للتفصيل : ص ٣٥٣ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology

(٢) نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٣) انظر للتفصيل : ص ٤٠٩ ــ ٤١٠ من :
A short History of Religion by E.F. Kellett

وقد خلقت هاتان الديانتان بدورهما أساطير كثيرة حول شخصياتها الخالدة . وبصفة خاصة كانت للبوذية آثار بعيدة المدى فى أفكار شعوب آسياوعقائدها ، وقد تناولت أساطيرها شخصياتها الخالدة ، وأضفت عليها ألوانا من المعجزات والخوارق ، ولكنها لم تتسم بالروح الدينية ، مع أن الظواهر الفلسفية تتجلى فيها بين حين وآخر(١)

ويبدو لنا من قراءة القصص والأساطير عن حياة « بوذا » التى ألفت فيما بعد أن الاله فشنو قد تجسد فيه لانقاذ البشرية من الهلاك وهدايتها الى طريق النجاة والخلاص . وقد مر « بوذا » بعدة أشكال ودخل فى عدة أجساد طبقا لعقيدة التناسخ قبل ظهوره فى شكله الأخير كالانسان . وقد كان يقوم فى حياته الاولى بمهمة نشر تعاليم الآلهة فى السماء ، وأخيرا ولد فى « كابيلفاستو » من أسرة ملكية بولاية بهار ، وكان ابنا للملكها « ساكياس »(٢) .

وقد سميت الأساطير التى تتعلق بحياته قبل نيله النور « جاتاكاس » أو الوحى فى تعبيرنا . وهذه الأساطير كلها ليست بوذية أصيلة فى صياغتها ، بل معظمها يعتبر مجموعة من القصص والأساطير التى كانت متداولة فى الهند منذ زمن بعيد ، أو ظهرت بعد « بوذا » ، فاندمجت أخيرا فى « جاتاكاس » واتخذت ملامح وخصائص البوذية . فلما أخذت البوذية طريقها الى ايران وسوريا والعراق فى السنين الميلادية الأولى ، دخلت فيها أساطير هذه البلدان واندمجت فيها ، كما يتجلى ذلك فى الفنون البوذية (٣).

وكذلك دخلت الأساطير الهندية الهند الصينية والصين واليابان وسيلان وبورما عن طريق البوذية التى سادت هذه المنطقة واستولت على عقول سكانها ثم انعكست فيها روح تلك البلدان وأساطيرها(٤) . وبهذا تبلورت فيها روح الشرق كلها .

وفى ضوء هذه الظواهر يمكننا القول : بأن الأساطير الهندية قد لعبت دورا كبيرا فى الحياة الدينية والفكرية والأدبية فى شعوب آسيا، وتركت أثارا بعيدة المدى فى آدابها . ولم نزل نلمسها فى آداب تلك الشعوب حتى الآن ، كما أنها أخذت طريقها الى أوربا ، واندمجت فى الآداب اليونانية والرومانية فيما بعد .

---

(١) انظر ص : ٣٨٠ ـ ٣٨١ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology
(٢) نفس المصدر : ص ٣٦٤ .

(٣) انظر : ص ٣٧٣ من :
Larousse Encyclopedia of Mythology
(٤) نفس المصدر : ص ٣٩٢ .